

مجلة الشهاب • المجلد: 06، العدد: 04 (2020م) • ص ص 07- 38
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

منهج القرآن الكريم في التعامل مع المستهزئين

The Methodology of the Holy Qur'an in Dealing with Mockers

د. سمير ربوزي*

المدرسة العليا للأساتذة - بوسعادة، الجزائر
s.rabouzi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/06/10 تاريخ القبول: 2020/10/19 تاريخ النشر: 2020/12/15

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

يعتبر الاستهزاء بالدين وبأهله من أعظم الجنايات التي جاءت الشرائع السماوية بتحريمها، وشهد العلم والواقع على خطورتها وشدة ضررها على الأفراد والمجتمعات؛ ولهذا كثُرت الدراسات حول هذه الآفة، وتركَّز معظمها حول حكم الاستهزاء بالدين، وأساليبه، وبعض المسائل الأخرى المتعلقة به.

ويتناول هذا البحث جانبا مهمًّا من جوانب هذا الموضوع، يَعتبر الباحث أنه أهم هذه الجوانب، وأشرفُها على الإطلاق، ألا وهو منهج القرآن الكريم في التعامل مع المستهزئين.

الكلمات المفتاحية:

الاستهزاء والسخرية؛ منهج؛ القرآن الكريم؛ التعامل؛ المستهزئين.

Abstract :

Mocking religion and religious people is one of the major crimes which the divine religions prohibited. Moreover, knowledge and reality attest to its danger and harm upon individuals and societies. Hence the plethora of studies concerning this flaw. Most of them focused on the ruling regarding mocking religion, its procedures and some other issues related to it .

This study deals with an important aspect of this topic, which the researcher considers as the most important and absolutely the most honorable of them; it is the methodology of the Holy Qur'an in dealing with mockers

Keywords:

mockery and ridicule; methodology; Holy Qur'an; dealing; mockers.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة :

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتّقين، ولا عدوان إلا على الظالمين المعتدين، وأصليّ وأسلّم على نبيّنا محمد بن عبد الله، أعلمِ الناس بالله، وأكثرهم خشية له، وغيرة عليه، وتعظيمًا له، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم لقاء الواحد القهّار، أمّا بعد:

فإنّ مما أضحى معلوما لدى عامّة الناس، فضلا عن خاصّتهم، أنّ مِن أشدّ أساليب العدوان التي يشنّها المبطلون على أصحاب الحقّ، والدعاة إليه، ما يسمّيه بعض المتخصصين في هذا الشأن: الحربَ النفسية؛ التي تشتمل على صنوف عديدة من أنواع الأذى والعدوان، لعلّ أشهرها وأشدّها تسبُّبا في زعزعة الاستقرار النفسي لدى كثير من المؤمنين، وزرعِ التوتّر، والاضطراب، والإحباط في قلوبهم: أسلوبُ السخرية والاستهزاء، الذي لا يحتاج المرء في إثبات خطورته من جهة، وشدّة عناية الشريعة بالتعامل مع أصحابه من جهة أخرى، إلى استعراض أحداث التاريخ الإسلامي، سواء أقصدنا بالتاريخ الإسلامي تاريخ هذه الأمّة المباركة: الأمة المحمّدية، أم تاريخ الأنبياء قاطبة مع أقوامهم؛ لا يحتاج المرء إلى استعراض أحداث هذين التاريخين للتيقُّن من أنّه أسلوبٌ مؤذٍ ظلّ يرافق دعوات النبيين، ويسير جنبا إلى جنب مع العدوان الجسدي، وربّما فاقه أحيانا أو استُبدل به؛ بل يكفيه أن يفتح كتاب الله تعالى، ويطويَ صفحة واحدة منه فيقابلَه خطابٌ للمنافقين يُسرّون فيه إلى أوليائهم من المشركين أنّهم بالمؤمنين مستهزئون، يليه مباشرةً خطابٌ من الله تعالى أنّه يستهزئ بهم نظير هذا الاستهزاء، ويمدّهم في طغيانهم يعمهون[1].

ولاشكّ أن تعجيل ذكرِ هذه الآفة البشرية في القرآن الكريم له دلالات وإشارات، لا يجد القارئ صعوبةً في استظهار بعضها، منها:

- خطورة هذا الأسلوب المشين من أساليب المبطلين، وبخاصة المنافقين المندسّين بين المؤمنين.

- وأنّ هذا الأسلوب ظهر باكرًا في تاريخ بناء الدولة الإسلامية في العصر المدني؛ وهذا ما تؤيّده أحداث السيرة النبوية العطرة، وتفسّره طبيعة الشخصية المنافقة، وخصوصية هذه المرحلة الحساسة من مراحل نشأة هذه الدولة الفتيّة.

- والحثُّ على ضرورة التعجيل باجتثاث جذور هذه النبتة الخبيثة من الأرض المباركة التي اختيرت لغرس شجرة الإيمان؛ قبل أن تتغلغل بين عروقها، فتعطّل نضج ثمارها، أو تصيب بعضها بالفساد أو الذّبول.

وحتى لا يُفهم من هذا الكلام أنّ فيه تلميحًا إلى أن آفة الاستهزاء بالمؤمنين لم تظهر إلا في العهد المدني من الدعوة النبوية المباركة، فإنه يحسنُ التنبيه على أنّ البداية بهذا الملمح من ملامح تجذُّرِ أسلوب الاستهزاء بالمؤمنين وبدينهم في التاريخ الإسلامي مردُّها إلى أنّه الأول من حيث ترتيب سور القرآن

الكريم في المصحف الشريف لا أكثر؛ وإلا فظاهرة السخرية والاستهزاء بالحق وأهله تبدأ في وقت باكر جدًا من بداية أيّة دعوة مباركة، وربّما تأخرت قليلا، أو خفيت، ولكنّ الأصل أنّها تنشأ بنشأة الدعوة إلى الحقّ، وتشتدّ بشدّتها، وتزول غالبا بزوالها.

ومما يؤكّد هذا المعنى أنّ عملية تتبّع موارد ذكر الاستهزاء بالدين وأهله في القرآن الكريم أسفرت عن إحصاء وروده في أكثر من ستّين موضعا منه، في نحو من أربعين سورة من سور القرآن الكريم، خمسةٌ منها فقط من القرآن المدنيّ(2)، بينما كان نزول أكثر من ثلاثين سورة بمكّة؛ حيث كان الصراع بين الحقّ والباطل شديدا ومعلَنا، الأمر الذي يمكن من خلاله افتتاحُ الكلام عن هذه الآفة الإنسانية المتعِبة، والأسلوب العدواني الحقير، بالإشارة إلى أنّ أهل الشرك والصلف والعناد كانوا، وسيظلّون أشدّ وأكثر الناس استهزاءً بالمؤمنين، وأنّ أهل النفاق والإرجاف أقلُّ منهم في ذلك، لا لشرف نفوسهم، أو رعايتهم لحقوق خصومهم المؤمنين، وإنما لجبنهم وخسّتهم؛ فقد تقرّر شرعا وعقلا وواقعا أنّ ظاهرة النفاق إنما تظهر وتكثُر في حال قوّة الجماعة المؤمنة، وعزّتهم ومنَعتهم؛ الأمر الذي يشكّل معه الاستهزاء بهم خطرا على مصالح المستهزئين، وتهديدا لسلامتهم، ومع ذلك فإنّ أعداء الله تعالى من المرجفين والمنافقين، وفي كلّ زمان ومكان، لا يضيّعون فرصة واحدة يتسنّى لهم من خلالها الاستهزاء بالدين أو أهله؛ لزرع البلبلة في أوساطهم، وإضعاف شوكتهم، وتشكيكهم في معتقدهم.

1. 1. **أهمّية الموضوع**: يكتسب هذا الموضوع أهميته من خلال النقاط الآتية:

1. 1. 1. خطورة الاستهزاء بالدين وبأهله، وتأثيره الكبير على معنويات المسلمين، وتهديد وحدتهم وتلاحمهم.

1. 1. 2. قلّة الدراسات المتخصصة فيه عموما، وفي ضوء الهدي القرآني الكريم على وجه الخصوص.

1. 1. 3. تمحوُر أكثر البحوث المنجزة لدراسة موضوع الاستهزاء بالدين حول مسألة بيان حكمه، وتحذير الشريعة الإسلامية منه، وبيان بعض أساليب المستهزئين المذكورة في الكتاب والسنة، بينما نلاحظ ندرة شديدة في الكتابات المهتمّة ببيان منهج القرآن الكريم في التعامل معهم.

1. 1. 4. تزايد حملات الاستهزاء بالدين بسبب كثرة وسائل التواصل الاجتماعي وغيره، وانتشار عَدواها في بعض المسلمين، وفي أُطر قانونية، وبرامج تلفازية، ونشاطات يصفها البعض بأنها ثقافية وفنية! والله المستعان.

1. 1. 5. ضعف بعض المنظومات المتّصلة بهذه الآفة، وفي مقدّمتها المنظومة التربوية، وعدم توفّرها على تصوّرات صحيحة وواضحة عن الأساليب النافعة في التعامل مع المستهزئين، وصيانة المجتمع من مخاطرهم ومكائدهم.

1 .2. **إشكالية البحث**: تدور مباحث هذا المقال حول إشكاليةٍ هامّة هي عدم ظهور المعالم الأساسية، وأسس المنهج الرشيد التي قامت عليها خطّة القرآن الكريم في التعامل مع المستهزئين والساخرين، مع أهمية الأمر، واتّفاق أهل الأمم قاطبة على خطورته وشدّة تأثيره في الناس، وبخاصّة ضعفاء الشخصية منهم، ومَن ابتلاه الله تعالى ببعض النقائص والعيوب التي تكون في الغالب مادّة الاستهزاء، ومفتاح باب شرور الساخرين المستهترين.

وإنّ المرء ليتفجّع قلبُه، وتدمع عينه بسبب ما يراه ويسمعه من خلال نوافذ الشبكات العنكبوتية، والقنوات الفضائية، ونحوها، من استهزاءاتٍ بشعائر الدين، وسخرية من المؤمنين، ثمّ لا يرى منهجا واضحا صارما في التعامل معهم، إصلاحا وتربية، أو عقابا وتعزيرا، مع اليقين من أنّ في كتاب الله تعالى من الهدايات الكريمة، والتوجيهات العظيمة، ما فيه حلّ هذه الإشكالية، والقضاء على هذا الوباء وغيره من الأوبئة والأدواء التي تهدّد حياة الأفراد، وسلامة المجتمعات، ولكن هذه الهدايات قد تكون متوارية عن بعض القائمين على شؤون هذه الأمّة، أو تكون من القلّة بحيث لا تلبّي حاجاتهم الفكرية، ولا توفّر ما يلزمهم من حلول وتوجيهات.

فكانت الرغبة في تتبّع كتاب الله تعالى، وجمع ما تفرّق بين سوره وآياته؛ لمعرفة: ما هي الأسس التي قام عليها منهج القرآن الكريم في التعامل مع المستهزئين؟ وما أهمّ الأساليب التي استُعملت في خطابهم؟ واختير لهذا البحث عنوان هو: منهجُ القرآن الكريم في التعامل مع المستهزئين.

1 .3.**المنهج المتبع في هذه الدراسة**: تمّ اعتماد المنهجين الاستقرائي والوصفي في دراسة هذا الموضوع.

1 .4.**الدراسات السابقة للموضوع**: الباحث عن دراسات سابقة لموضوع الاستهزاء بالدين يظهر له باديَ الرأي أنّها من الكثرة والوفرة بحيث لم تعد هنالك حاجة إلى مزيد بحثِ هذا الموضوع، واستخراج فوائده وأحكامه، غير أنّ من يتأمّل هذه الدراسات، وما قام به أصحابها، والمناهج التي اعتمدوها فيها، يتبيّن له أنّها اتّصفت بصفات منها:

- أنّ أكثرها كان عامًّا، ولم يكن خاصّا بالقرآن الكريم، ولا حتى بالكتاب والسنّة.

- وأنّ ما كان القرآن الكريم ميدان بحثها منها إنما كانت عنايته بأساليب الاستهزاء الواردة فيه، لا بمنهج القرآن الكريم في التعامل مع المستهزئين، وهو، كما سيأتي، ما يعتبر أولى بالعناية، وأحرى بالاهتمام والدراسة.

- وأنّ كثيرا من هذه الدراسات، وبخاصة البعيدة عن ميدان العلوم الشرعية، اعتمد أصحابها على الاستنباط العقلي، وتجارب القصص والأخبار، ولاسيما فيما يتعلق بعواقب الاستهزاء، وآثاره السلبية على

الفرد والمجتمع.

- ويمكن القول أيضا إنّ بعض هذه الدراسات اتّسمت بطابع الرتابة والتكرار، ولم تسلم من الحشو، وحشد أقوال العلماء والحكماء، ولاشكّ أن ذلك مما يكون على حساب الدراسة العلمية القائمة على الأسس المتينة، والمؤدّية إلى النتائج الأمينة، والمقترحات الرصينة.

من بين هذه العناوين التي تمّ الوقوف عليها، وتتبّعها من أوّلها إلى آخرها نذكر:

1. الاستهزاء بالدين أحكامه وآثاره، أحمد بن محمد القرشي، دار ابن الجوزي، ط1، 1426هـ، 2005م.

2. خطورة الاستهزاء بالدين، عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار المحدث، د.ط، د.تا.

3. أساليب التهكم في القرآن الكريم، للدكتور عباس علي الأوسي، مقال مشور بمجلة أبحاث ميسان، المجلد العاشر، العدد20، 2014م، ص.71.

4. أساليب التهكم في القرآن الكريم، دراسة تحليلية بيانية، للباحث أحمد ذياب عنانزة، رسالة قدّمت استكمالا لمتطلّبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2005م.

1. 5. خطة البحث:

تكوّنت خطّة هذا البحث من مقدّمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: اشتملت على تعريفٍ بالموضوع، وبيان لأهمّيته، وإشكالية البحث، والمنهج المتبع فيه، والدراسات السابقة للموضوع، وخطة البحث.

المبحث الأول: تعريف الاستهزاء.

المبحث الثاني: أسبابُ الإصابة بآفة الاستهزاء بالدين وعواقبُها.

المبحث الثالث: أسس المنهج القرآني في التعامل مع المستهزئين.

الخاتمة: وفيها ذكر النتائج التي تم التوصّل إليها، والتوصيات المقترحة.

2. المبحث الأول تعريف الاستهزاء :

2. 1. المطلب الأول: التعريف اللغوي .

تكاد تجمع المعاجم اللغوية على أنّ الاستهزاء والسخرية شيء واحد؛ ولهذا نجدهم يعرّفون الاستهزاء بأنه السخرية، والسخرية بأنها الاستهزاء، قال الجوهري: "الهزء والهزؤ: السخرية"[3]، وقال ابن فارس:

"الهاء والزاء والهمزة كلمة واحدة؛ يقال: هزئ واستهزأ، إذا سخر"[4]، وبمثل ذلك قال ابن منظور[5]، والرازي[6]، وابن سيده[7]، وغيرهم.

وعرّف السخريةَ بأنّها الاستهزاءُ كثيرٌ من اللغويين أيضا؛ منهم الأزهري[8]،وابن فارس[9]، وابن سيده[10]، وابن منظور[11]، وغيرهم.

وهكذا كان مبحث تعريف الاستهزاء والسخرية محلَّ اتفاق بين أصحاب المعاجم، ولم يثُر بينهم فيه نقاش إلا حول مسألة واحدة لا تَنقُض اتّفاقهم على كون العلاقة التي بين اللفظتين هي علاقة الترادف لا الاختلاف، وهذه المسألة هي تحديد الجارّ الذي يتعلّق[12] بهما؛ فأكثر أصحاب المعاجم على أنّ لفظ السخرية يتعلّق به حرف مِن، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (هود: 38)، ولفظَ الاستهزاء وما يشتق منه يتعلّق به حرف الجرّ الباء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (الحجر: 11)، وجَزَم يونس فقال: "إذا قال الرجل هزئت منك، فقد أخطأ؛ إنما هو هزئت بك، وقال أبو عمرو: يقال سخرت منك، ولا يقال: سخرت بك"[13]، وهذا القول يؤيّده الاستعمال القرآني للفظتين؛ فليس في كتاب الله تعالى لفظة من ألفاظ مادة "هزأ" تعلّق بها حرف جرّ إلا كان الباء، وليس فيه من ألفاظ مادة سخر التي تعلّق بها حرف جرّ إلا كان مِن، ومع ذلك فإنّ الأخفش لم ير حرَجًا في أن يتعلّق الباء بألفاظ السخرية، وحرف مِن بألفاظ الاستهزاء، فقال: "سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، وهزئت منه وهزئت به، كل ذلك يقال"[14]، نقله عنه الجوهري وابن منظور وغيرهما.

ولم يرتضِ رأيَ الأخفش هذا كلٌّ من ابن السكيت، وأبي زيد؛ فألمح الأوّل إلى أنّه من غير الفصيح بقوله: "تقول: سخرت من فلان، فهذه: اللغة الفصيحة"[15]، وصرّح الآخر بنسبته إلى الرداءة فقال: "هو أردأ اللغتين"[16]، ولأنّ الأخفشَ لم يُنقل عنه ما يُثبت فصاحة الاستعمال الذي ذكره فإنّ أقلّ شيء يُقال حول هذا الاستعمال أنّه لغة نادرة، يحسُن عدم استعمالها مع شيوع الاستعمال الفصيح، واطّراده في كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّه ﷺ.

ويعجَب الباحث من إغفال عامّة أصحاب المعاجم فرقًا هامًّا بين السخرية والاستهزاء، ذكره العسكري في معجمه الفروق اللغوية، هو أنّ "الإنسان يُستهزأ به إن لم يحصل منه ما يثير الاستهزاء، بينما إذا حصل منه ذلك كان ما يُرتكب في حقّه من استخفاف واستهانة سخريةً"[17]، وهذا التفريق يؤيّده الاستعمال القرآني أيضا، بل لا يبعُد أن يكون هو مستنده؛ فلم يرد في كتاب الله تعالى ذكرٌ لاستخفاف قوم بقوم بسبب فعلٍ قاموا به إلا وُصف بأنه سخرية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ (هود: 38)، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ (التوبة: 79)، كما أنّه لم يرد فيه وصفٌ لشخص بالاستهزاء ومعه إخبارٌ عن المستهزَأ به أنّه حصل منه ما أثار هذا الاستهزاء.

واعترض بعض الباحثين على هذا التفريق، مستدلّين بقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الأنعام: 10، والأنبياء: 41)؛ وأنّه ذُكر فيه الاستهزاء والسخرية معًا دالَّين على فعل واحد، غير أنّ من يتأمّل تركيب هذه الآية يظهر له -والله تعالى أعلم- أنّه لا دلالة فيها على الترادف بين الاستهزاء والسخرية، بل الصحيح أنّ بينهما علاقة العموم والخصوص المطلق؛ لأنّ المولى تبارك وتعالى اعتبر في هذه الآية الساخرين مستهزئين، بينما لم يُشر فيها ولا في غيرها إلى أنّ المستهزئين ساخرون بإطلاق، فأمكن القول بالعموم والخصوص المطلق بين اللفظتين؛ فكل ساخر مستهزئ، وليس كل مستهزئ ساخرا، والله أعلم.

وقد وقفت بعد تسويد هذا الكلام على فرق آخرَ ذكره أحد الباحثين[(18)]؛ هو أن الاستهزاء يكون بالأشخاص وغيرهم، بينما لا تكون السخرية إلا بالأشخاص، وهذا التفريق يؤيّده الاستعمالُ القرآني للفظتين؛ فتأكّد القول بأنّ الاستهزاء أعمّ من السخرية، والله تعالى أعلم.

2. 2. المطلب الثاني: التعريف الاصطلاحي للاستهزاء

أكثرُ من عرّف الاستهزاء اصطلاحا درجوا على طريقة اللغويين؛ فلم يفرّقوا بينه وبين السخرية، وذكر كثير منهم أحدهما في تعريف الآخر، كما فعل صاحب الكشّاف؛ حيث قال: "الاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب الخِفَّة"[(19)]، وقال أبو العباس ابن تيمية: "الاستهزاء هو: السخرية؛ وهو حمل الأقوال والأفعال على الهزل واللعب لا على الجد والحقيقة"[(20)]، وأمّا صاحب الطراز لأسرار البلاغة فنقل عن علماء البيان تعريفًا للتهكّم يُفهَم منه أنّه والاستهزاء شيء واحد؛ حيث اعتبروه "إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاءً بالمخاطب"[(21)]، وأوجز المناوي جدّا فقال: "الاستهزاء ارتياد الهزء"[(22)]، وهكذا لم أقف على تعريف جامع مانع للاستهزاء، غير أنّ ما عرّف به الغزّاليُّ السخرية، وهو أشهر التعريفات، وأكثرها استعمالا في دراسات العلماء والباحثين، يُسعفنا في صياغة تعريفٍ للاستهزاء؛ حيث قال: "معنى السخرية الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في القول والفعل، وقد يكون بالإشارة والإيماء"[(23)]، فبتعديلٍ طفيف على هذا التعريف، وتوظيفٍ لمصطلح الاستخفاف الذي ذكره الزمخشري في تعريفه للاستهزاء، مستلاًّ إياه من أصل الباب الذي هو الخفّة، نعرّف الاستهزاء بأنّه: "الاستخفاف والتحقير، بالتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه، فإن كان في مقابل عمل صدر عن المستهزَأ به فهو السخرية؛ فكل سخرية استهزاء بلا عكس".

3. المبحث الثاني: أسباب الإصابة بآفة الاستهزاء بالدين وعواقبُها

3. 1. المطلب الأول: أسباب الإصابة بآفة الاستهزاء بالدين

يَرجع إلحاق الكلام عن أسباب الإصابة بآفة الاستهزاء وعواقبها بهذا المقال الذي إنّما سُوِّدت صفحاته لبيان المنهج الرباني في التعامل مع المستهزئين إلى سببين اثنين:

السبب الأول هو أنّني لم أقف على من سلّط الضوء عليهما، ووفّاهما حقّهما من العناية والبيان في ضوء الهدي القرآني الكريم، مع الاعتراف بأنّ أصحاب كثير من المقالات والمنشورات الإلكترونية، وحتى بعض الدراسات العلمية، تعرّضوا للكلام عنهما، ولكن -كما سبقت الإشارة إليه- بكثير من الكلام الإنشائي، والخطرات الفكرية، والاعتماد على بعض التجارب الواقعية، وهي، وإن كانت محترمة في ذاتها، جادّة في طرحها، إلا أنّها تبقى مفتقرة إلى أرضية علمية صلبة، ومرتكَز شرعي متين، يجعل القارئ مطمئنا لما يقرأ، راغبا في العمل بما تمّ التوصل إليه في ضوء هذه الإسهامات المشكورة الكثيرة.

وأما السبب الآخر فهو أنّني أعتبر بحث هاتين المسألتين في هذا الموضع تمهيدا للكلام عن منهج القرآن الكريم في التعامل مع خطابات المستهزئين؛ وذلك أنّ ذكر أسباب الوقوع في أوحال آفة الاستهزاء، وما يترتّب عن ذلك من عواقب وخيمة من شأنه أن يصوّر لنا شخصية المستهزئ، ويكشف لنا عن جوانب كثيرة، ومحدّدات عديدة لنفسيته المريضة؛ الأمر الذي يمهّد الطريق أمام عرض المنهج الرباني الذي اتُّبع في القرآن الكريم للتعامل مع هذا الصنف الرديء من الناس. وأودّ أن أشير إلى أنّ غاية ما قمت به في جمع هذه الأسباب والعواقب هو أنني جمعتُ الآيات المتضمّنةِ ذكرَ الاستهزاء والمستهزئين، وهي أزيدُ من مائتي آية[24] ثمّ بقيت أتأمّلها، وأتتبّع سياقاتها، مستعينًا في ذلك ببعض كتب التفسير، فتحصّل لديّ أحد عشر سببًا للإصابة بداء الاستهزاء ورد ذكرها في القرآن الكريم، أعرضها فيما يأتي مرتّبةً ألفبائيا، وعاقبتان وخيمتان يؤول إليهما من أصرّ على مقارفة هذا الذنب الشنيع، والاستخفاف بدين الله تعالى، وبأوليائه الصالحين.

أسباب الإصابة بآفة الاستهزاء:

1. الاستكبار والعلوّ في الأرض: قال الله تعالى:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ (الجاثية: 7-9).

2. الإعراض والتكذيب: قال الله تعالى:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ

يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (الأنعام: 4-5). وقال أيضا: ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الشعراء: 5-6).

3. الاغترار بالعلوم الدنيوية:

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (غافر: 83).

4. الاغترار بالمال، واحتقار الفقراء:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (التوبة: 79).

5. الاغترار بالملك والرئاسة: قال جلّ وعلا:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الزخرف: 46-47).

6. الترف والمبالغة في التنعّم:

قال عزّ من قائل: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الزخرف: 32).

7. التقليد الأعمى والتعصّب للمتبوعين:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ (هود: 87).

وقال جلّ شأنه: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (الفرقان:41-42).

8. التكذيب بالبعث: قال تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الصافات: 12-17).

وقال أيضا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ (سبأ: 7-8).

ويدخل في هذا عمومُ أسئلة المشركين الاستبعادية للبعث والنشور، وأكثرها بصيغة: أئذا متنا، وأكثرُ موارد قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (يونس: 48).

9. حبّ الدنيا: قال جلّ وعزّ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ ﴾ (البقرة: 212).

10. طول الأمل: قال تبارك وتعالى: ﴿ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾ (القيامة: 5-6).

11. النفاق: قال جلّ وعلا: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴾ (التوبة: 64). وقال أيضا: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (البقرة: 14-15).

فتأمَّل هذه الآيات، ونظائرها المشتملة على بيان بعض صفات المستهزئين، وما أوقعهم في أوحال هذا الدرَك السحيق في مستنقع الأمراض النفسية، والأوبئة السلوكية، ممّا يجعل نفسَ القارئ تتوق إلى التعرّف على منهج القرآن الكريم في التعامل معهم، وتتوقّع أنّه سيتضمّن على قدر من الشدّة والصرامة يتناسب مع ما آل إليه حالهم، ويضمن علاجًا نافعا لهم، ووقاية آمنة لمن حولهم عن الإصابة بوبائهم، أو التضرّر بعدوانهم.

3. 2. المطلب الثاني: عواقب الاستهزاء بالدين وأهله

يحسُن بنا هنا أن نذكر كلمة نفيسة للإمام ابن القيم، تحدّث فيها عن شؤم المعاصي، وآثارها السيئة على صاحبها، بل على كلّ ما امتدّت إليه؛ قال رحمه الله: "فممّا ينبغي أن يعلم، أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي، فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟"[25].

قلت: وأعظمُ من كلمة ابن القيم هذه كلامُ ربّنا جل وعلا؛ حيث يقول في بيان سبب ظهور الفساد في البرّ والبحر: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ (الروم: 41)؛ فالمعاصي سبب كل بلاء وشرّ، ومن أعظم المعاصي بلا شكّ الاستهزاءُ بالدين، والسخرية من أهله، ولذلك كانت عواقبه السيئة كثيرة وخطيرة، منها ما يعود على المستهزئ نفسه، كظهور الأمراض النفسية فيه، وكراهية الناس له، وتعرّضه لانتقامهم وعدوانهم، وفراغ قلبه من نورِ الإيمان، ولذةِ تعظيم الربّ جلّ جلاله، إلى غير ذلك من العواقب الظاهرة والباطنة.

ومنها ما يتعلق بالمجتمع الذي يعيش فيه هذا المستهزئ؛ كنشوء الضغائن بين الناس، وانتشار الأحقاد، وتمزّق الأواصر، وضعف جامعة الأمّة؛ الأمر الذي يُشمت فيها الأعداء، ويجرّئهم عليها، ويحرّك أطماعهم فيها.

غير أنّ ما عُقد له هذا المطلب ليس هو بيان العواقب الوخيمة العامّة للاستهزاء بالدين، والسخرية من المؤمنين؛ بل بيان عواقبَ ورد النصُّ في القرآن الكريم على أنّ الله تعالى أعدّها للمستهزئين الساخرين، جزاءً وفاقا، زيادة على ما يشتركون فيه من عواقب مع غيرهم من العاصين والفاسقين؛ لأنّهم فاقوهم في الفسق والعصيان، وانتقلوا من مرحلة التقصير في حقّ الله تعالى، والجناية على النفس، إلى مرحلة التقصير في حقّه سبحانه، والجناية على النفس والغير؛ أي أنّ أذاهم متعدٍ وليس قاصرا، فكانت عقوباتهم زائدة على عقوبات غيرهم، وهذا من عدل الله تعالى فيهم، ومن آثار أسماء كثيرة من أسمائه سبحانه؛ كالعزيز، والجبار، والكريم، والحكيم، والقويّ، والقهّار، ونحوها من الأسماء التي لو عقل المرء معانيَها، وعمل بمقتضياتها، ما تجرّأ على الاستهزاء بدينه سبحانه، والسخرية من أوليائه الصالحين.

ويمكن القول إنّ العواقب الوخيمة التي تكرّر في القرآن الكريم أنّ الله تعالى توعّد بها أعداءه المستهزئين تتفرّع عن عقوبتين اثنتين؛ إحداهما تصيب القلب، وتعصف به، وتطفئ فيه أنوار الإيمان، جزاء استهتار صاحبه، وإعراضه عن العناية به، وتزويده بما يحتاج إليه من مادّة التعظيم لله جلّ وعلا، وعلمٍ به سبحانه وبشرعه الحنيف.

وأما العقوبة الثانية فحِسّيةٌ؛ تصيب البدن، وتسلّط عليه عذاب الله تعالى، نظير صدود صاحبه عن دعوة الله سبحانه له، وتوجيه بصره وبصيرته إلى آياته المسطورة والمنظورة، وفيما يأتي بسطٌ وجيز للكلام عن هاتين العاقبتين الوخيمتين، وذكرٌ للأدلة الكافية لإثبات كونهما ممّا أعدّه الله تعالى للمستهزئين بدينه وأوليائه.

العاقبة الأولى: الغفلة عن ذكر الله تعالى.

لاشكّ أنّ الغفلة عن ذكر الله تعالى من أعظم أسباب ارتكاب الآثام، واقتراف الذنوب والخطايا، ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿ **ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ** ﴾ (الأنبياء: 1-2)، إلا أنّ ما قد يخفى عن كثير من المسلمين أنّ الغفلة عن ذكر الله تعالى كما أنّها سببٌ من أسباب الذنوب والمعاصي، فإنها أثر من آثارها أيضا! وثمرة من ثمارها السيئة؛ بحيث يصرف الله سبحانه قلب العبد عن طاعته، وينسيه ذكره، ويلهيه عمّا خُلق لأجله عياذا بالله تعالى، وعامّةُ ما في كتاب الله جل وعلا من آيات الطّبع، والختم على القلب ونظائرها، تعتبر من الأدلة على هذه الحقيقة المخيفة، والموعظة القرآنية البليغة. ومنها أيضا قول الله تعالى: ﴿ **سَأَصۡرِفُ عَنۡ**

ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: 146)، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ (الكهف: 28)، وتأمّل الفرق بين عبارة: غفل قلبه، والقول الكريم: ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾، يظهر لك وبوضوح كيف أنّ الله تعالى يُغفل قلب من يشاء من عباده جزاء اقترافه بعض الآثام، منها الاستهزاء بدينه، والسخرية من أوليائه.

ومن الأدلّة الصريحة على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةٗ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٞ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الزمر: 55-56)، وليس المعتمَد في اختيار هذه الآية هو دلالة الاقتران وحسب؛ بل لأنّ عامة المفسرين على أنّ هذا المتفجّع –عياذًا بالله تعالى- يحكي عن نفسه أنّه ما ألهاه عن ذكر الله تعالى، والإقبال عليه طاعة وإنابة ودعاءً إلا اشتغاله بالسخرية والهزء، لسان حاله يقول: "إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق"[26]، قال ابن عاشور رحمه الله في تفسيرها: "أي فرّطت في جنب الله تفريط الساخر لا تفريط الغافل"[27].

ومن الأدلّة على هذا المعنى أيضا قول المولى عزّ وجل مخاطبا أهل النّار: ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (المؤمنون: 108-111)؛ فالسخرية من المؤمنين تنسي ذكر الله تعالى، وهذا أمر معقول المعنى؛ فكلما استهان العبد بأمر ما، واستخفّ بأهله، نفر منه لا محالة، وفرغ قلبه من تعظيمه واحترامه، وهذا من أعظم دلائل العدالة الإلهية، وعزّة هذا الدين الحنيف الذي لا يمكن أن يعمرَ إلا قلبا خاشعا مخبتا، فارغا من الآفات النفسية، والأمراض القلبية، ولقد تعمّدت أن لا أكتفي بمحلّ الشاهد من هذه الآيات، وأذكرَ جزاء المؤمنين المستهزَأ بهم الذي أكرمهم الله تعالى به؛ تأكيدا لما تقدّم معنا من بيان عدل الله تعالى في هؤلاء الساخرين المستهزئين، وأنّه سبحانه يقتصّ لأوليائه منهم في الدنيا قبل الآخرة؛ فمن إكرام الله تعالى لأوليائه في الدنيا نظيرَ سخرية الكافرين منهم أن رخّص لهم أن يسخروا منهم هم أيضا، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٞ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (هود: 38).

ومن إكرامه تعالى لهم يوم القيامة في هذا الخصوص، وإكرامُ الله تعالى لأوليائه لا طاقة لأحد أن يحدّه أو يحصره، أنّه يجازيهم نظيرَ ما لاقوه من سخرية وأذى جزاء خاصا، منه ما يتعلق بنعيمهم ورفعة درجاتهم، ومنه ما يتمثل في إطلاعهم على الساخرين منهم، والمستهزئين بهم، وإعطائهم حقّ الاقتصاص

منهم، والضحك منهم ضحك الفائز المنتصر لا ضحك السفيه المنكسر، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦ ﴾ (المطففين: 29-36)، فكما كانوا يضحكون منهم في الدنيا، ويُدخلون الهمّ والغمّ على قلوبهم بذلك، بمن فيهم أنبياء الله تعالى، وفي مقدّمتهم سيّد الخلق ﷺ الذي وصف لنا ربّ العالمين شيئا مما كان يلاقيه من سخرية المشركين واستهزائهم، فقال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ ﴾ (الحجر: 97) أعطى ربّ العالمين أولياءه فرصة الاغتباط برؤيتهم يدفعون ثمن طغيانهم، وعصيانهم، والضحك منهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وليس هذا وحسب؛ بل إن في كتاب الله تعالى ما يدلّ على أنّ هؤلاء الساخرين المستهزئين يتذكّرون فيما بينهم وهم في نار جهنّم من كانوا يستخفّون بهم، ويتسلّون بذكرهم في المجالس، يذكّرهم الله تعالى بهم في هذا المشهد الفظيع المؤلم؛ تنديما لهم، ومجازاة إيّاهم من جنس أعمالهم الساخرة الفاجرة؛ فهم كانوا يضحكون، ويستمتعون بالسخرية من المؤمنين، وها هم اليوم يتساءلون مغمومين مهمومين: ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾ (ص: 62-64).

العاقبة الثانية للاستهزاء بالدين وأهله: العذاب العاجل والآجل.

يأتي معنا قريبا كلامٌ عن أحد الأسس المتينة التي قام عليها المنهج القرآني الحكيم في التعامل مع المستهزئين، فيه أنّ ممّا لوحظ على عموم السياقات القرآنية التي ورد فيها كلام عنهم أنّها لم تخلُ من ذكر لفظ العذاب أو بعض مرادفاته الأخرى، مما يتأكّد معه أنّ من عواقب الاستهزاء بالدين التعرُّض لعذاب الله تعالى العاجل والآجل:

فمن أدلّة كون الاستهزاء سببًا في نزول العذاب العاجل بأصحابه قولُ الله تعالى في موضعين من القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠ ﴾ (الأنعام: 10، الأنبياء: 41)، ويحسُن بنا أن نقف قليلا مع هذه الآية، ونسلّط الضوء فيها على ملحظين هامّين متعلّقين بهذا الموضوع:

الملحظ الأول هو أنّ الاستهزاء بالدين سنّة كونية، وأسلوب عدوانيٌّ لم يسلم منه نبيّ من الأنبياء،

ويؤكّد ذلك قول الله جلّ وعز: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (الحجر: 11)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ (الزخرف: 7).

والملحظ الآخر هو أنّ الله تعالى لم يزل منزّلا من عذابه على المستهزئين بأوليائه ما يحفظ للدين حُرمتَه، ويكسر للمستهزئ شوكته، ويصون للأنبياء وأتباعهم كرامتهم، ولعلّ مِن أقوى ما يتأكّد به هذا المعنى قول ربّنا جل وعلا مخاطبًا نبيّه الكريم ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾(الحجر: 95)؛ فالمستهزئ[28] بالدّين ذائقٌ لا محالة من عذاب الله تعالى ما يقمعه ويكبته، عَلم ذلك من علمه، وجهله من جهله، ما لم ينزع عن جنايته على دين الله تبارك وتعالى، ويوفّقه ربُّه سبحانه إلى توبة عنه، وإصلاح لما كان منه.

ومن الأدلة على نزول العذاب الدنيوي على المستهزئين أيضا قول الحقّ سبحانه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الرعد: 32)، وقوله جلّ وعلا: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (يس: 28-30).

وأمّا الآيات الدالة على تعذيب الله تعالى للمستهزئين يوم القيامة فكثيرة جدا في القرآن، نختار منها قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الكهف: 106)، وقوله سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الجاثية: 33-35).

وتجنّبا للتكرار والتطويل فإننا نكتفي بهذا القدر من الكلام عن هذه العاقبة، ونرجئ نصيبا آخر منه إلى محلّ لاحق، وهو قريب[29].

بعد هذه الجولة السريعة في كتاب الله تعالى، وتأمُّلِ ما فيه من بيان أسباب الإصابة بداء الاستهزاء، وعواقبه الوخيمة، وعدم الوقوف على عذر واحد لهم في ارتكابهم هذا الجرم العظيم في حق المؤمنين، وإدخال الهمّ عليهم به، وزعزعة نفسياتهم ومعنوياتهم، بل هو مجرّد الكبر، والغرور، والتعصّب الأعمى للآباء والأجداد، والاغترار بالمناصب والمكاسب، نمضي الآن إلى عرض ما وقفنا عليه من معالم المنهج القرآني الفريد في التعامل مع هذا الصنف من الناس، وأسسه المتينة؛ لنبرز كيف أنّه كان منهجا حكيما، ومسلكًا رشيدا في التعامل مع هذه الآفة البشرية، وأنّ هذا المنهج ينبغي أن يُحتذى، ويتّخذ شعارًا في مواجهة الحروب النفسية المتزايدة التي يشنّها أعداء الإسلام عليه وعلى أهله، والمتمثلة في حملات الاستهزاء والسخرية المنتشرة كالنار في الهشيم بسبب توفّر وسائل التواصل الحديثة، وضعف المناعة

الشرعية لدى كثير من أبناء المسلمين، الذين تلطّخت ألسنة كثير منهم بهذا الوباء، وصاروا هم الآخرون يستهزئون بدينهم، ويسخرون من أهله! شعروا بذلك أم لم يشعروا، وإلى الله المشتكى، وهو المستعان سبحانه، وعليه التكلان.

4. المبحث الثالث : أسس المنهج القرآني في التعامل مع المستهزئين

أفضّل قبل عرض هذه الأسس أن أقدّم له بمقدمتين اثنتين، تكونان بمثابة التمهيد له، والموصل إليه:

4. 1. **المقدمة الأولى** : تعليقةٌ على خلوّ السور القرآنية الأولى من ذكر أخبار المستهزئين.

بعد تتبُّع آيات القرآن الكريم أكثر من مرة حسب ترتيب سوَرها في المصحف الشريف، استقراءً لأساليب الاستهزاء الواردة فيها، عُدتُ إليها بعد ذلك، وتتبّعتها حسب ترتيبها من حيث النزول؛ لمعرفة بدايات ظهور آفة الاستهزاء عموما في الواقع النبوي من جهة، وفي القرآن الكريم من جهة أخرى، فتبيّن أنّ أكثر من ثلاثين سورة الأولى نزولا لم يرد فيها ذكر استهزاء ولا مستهزئين، وهذا والله تعالى أعلم راجع إلى طبيعة المرحلة التي شهدت نزول هذه السور؛ وهي المرحلة التي يسميها علماء السيرة مرحلة الدعوة السرية التي دامت نحوا من ثلاث سنين، لم تكن فيها دعوة النبي ﷺ مُعلَنة، ولا كان أصحابه بالكثرة التي تثير انتباه مشركي مكّة وانزعاجهم، ومن ثمّ تحرُّكِ رغبتهم في مجابهة هذه الدعوة، وشنّ ما توفّر لهم من أنواع الأذى والعدوان، ومن أشدّه عندهم، وأيسره عليهم بلا شكّ: حرب السخرية والاستهزاء.

وهذه الملاحظة لها فوائد عدّة، منها ما يتعلّق بجانب التدبّر؛ بحيث يتنبّه تالي كتاب الله تعالى لخلوّ هذا الجزء منه من ذكر أخبار المستهزئين، ويقف على ما تيسّر له من أسبابه، وآثاره، وثماره.

ومنها ما يتعلّق ببحثنا هذا، وأهمّها معرفةُ كيفية انطلاق العمل بمنهج القرآن الكريم في التعامل مع المستهزئين، وهل لها طريقة خاصّة، يفترض بالموكول إليهم تطبيق هذا المنهجِ العلمُ بها، والعمل بمقتضياتها.

ومنها ما يتعلّق بما بعد مرحلة الانطلاق، وهو ما عقدنا له المقدمة الثانية، والتي تتمحور حول سؤال: كيف تشكّل المنهج القرآني للتعامل مع المستهزئين؟ وهل روعيَ فيه العمل بمبدأ التدرّج ومراعاة المرحلية؟

4. 2. **المقدمة الثانية**: في ذكر علاقة هذا المبحث بمبدأ التدرج في تشريع الأحكام والتعاملِ مع المخالفين.

من أهم الأسس التي قامت عليها الشريعة الإسلامية في كثير من أحكامها مبدأ التدرّج؛ الذي تجلّت فيه معالم الرحمة، واليسر، واللين.. التي اتّصفت بها هذه الشريعة؛ فحتى الصلاة التي هي عمود الدين، والصيام، والزكاة، والجهاد، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا، ونحو ذلك، على أهمّيتها وحاجة الأمّة إليها، لم

يأت في الشريعة المحمّدية إلزامُ الناس بها من أوّل يوم؛ بل روعيت فيها مصالح عظيمة، ومقاصد جليلة، ليس هذا المقام بالذي يتّسع لذكرها فضلا عن بسط القول فيها، ومع ذلك فإنّ مما أسفرت عنه العملية الاستقرائية الوصفية لأساليب التعامل مع المستهزئين، ويأتي قريبا مزيد تفصيل له، أنّ حظرَ الاستهزاء بالدين وأهله، والشدّةَ على أصحابه، لم يُعمل فيهما بمبدأ التدرج؛ بل كان من مستثنيات العمل بهذا المبدأ، وهذا ما يشكّل في أذهاننا صورة واضحة عن خطورة هذه الآفة، وسرعة انتشار آثارها السيئة في المجتمع المسلم، الأمر الذي يستوجب صرامة في التعامل معها، وعدم تفويت أيّ فرصة لاجتثاثها، وقطع دابر أصحابها.

ولعلّ مخاطبة الله تعالى نبيّه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ (الحجر: 95)، بهذا الأسلوب المؤكّد الشديد، وفي السورة التي أمره فيها بإعلان دعوته، والصدع برسالته، بل بعد هذا الأمر مباشرةً؛ حيث جاء فيها قول الله جلّ وعزّ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ (الحجر: 94-95)، لعلّ هذه المخاطبة كافيةٌ لتعطيَنا نظرة إجمالية عن المنهج القرآني في التعامل مع المستهزئين، والذي نشرع الآن بعون الله تعالى في عرض تفاصيله، وبيان أهمّ الأسس التي يرتكز عليها، مع ذكر نماذج قرآنية عن كلّ أساس، وما يتطلّبه المقام من تعليق عليها، أو نقل تفسير ما غمض منها.

4. 3. أسس المنهج القرآني الحكيم في التعامل مع خطابات المستهزئين:

بعد استخراج الآيات القرآنية الكريمة ذات الصلة بموضوع الاستهزاء، والقيام بتصنيفها حسب ما يربط كلاًّ منها بمحور هذا البحث، مع الرجوع المستمرّ إلى كتب التفسير، تمّ تحديد أساليب فرعية كثيرة انتُهجت في كتاب الله تعالى للتعامل مع المستهزئين، تبيّن بعد طول تأمُّل أنّها تندرج تحت أصول أربعة كبرى، يمكن اعتبارها الأسسَ العامة للمنهج الذي نصبو إلى عرض تفاصيله، وهي فيما يأتي:

4. 3. 1. الأساس الأوّل: الفورية وعدم التأجيل والتدرّج.

تقدّم معنا قريبا كلامٌ عن عمل الشريعة الإسلامية بمبدأ التدرّج، وأنّ فيه من الحكم والمقاصد ما لا سبيل إلى حصره، ومحلُّ الكلام عنه كتب الأصول والمقاصد وغيرها، نكتفي منه بكلمةٍ للإمام الزرقاني رحمه الله تعالى يقول فيها مجمِلا هذه الحكم: "إن مصلحة العباد التي هي مقصود الشارع الحكيم الرحيم تقضي أن يكون تكليفه إياهم على حالة تدعو إلى امتثالهم؛ وذلك بأن يتدرج بهم فيمهِّد للتكليف الخفيف بتكليف أخف منه، ويمهد للتكليف الثقيل بتكليف خفيف..؛ لأن الناس لو بوغتوا من أول الأمر بالثقيل مثلا لعجزوا ونفروا وانعكس المقصود من هدايتهم"[30] ا.هـ

ولكنّ من يتتبّع مواضع ذكر المستهزئين في كتاب الله تعالى يجد أنّ الشارع الحكيم لم يتدرّج في تحريم هذه الجناية العظيمة، ولا في التشنيع على أصحابها، وتوعّدهم بالعقاب العاجل والآجل؛ بل يلاحظ

طريقة واحدة، وأسلوبًا مطّردا في التعامل مع هذه الفئة الرديئة من الناس، نفضّل أن نرجئ الكلام عن أهمّ ملامحه إلى محلّه المناسب، وهو الكلام عن الأسس الثلاثة المتبقّية.

وإذا كان لابدّ من بيان تفسيرٍ لهذا الجانب من منهج القرآن الكريم في التعامل مع المستهزئين، فالظاهر والله تعالى أعلم أنّ مردّه إلى أنّ هذه الجناية وإن كانت في الغالب لفظية ظاهرة، فإنّ التصنيف المناسب لها هو أبواب الاعتقاد، المتمحورة أساسا حول أعمال القلوب، والعبادات الباطنة؛ فالمستهزئ لم يجد من نفسه جرأة على السخرية من عباد الله تعالى، والاستهزاء بدينهم إلا لمّا فرغ قلبه من تعظيم الربّ جل وعلا، وتلاشت في داخله أنوار التوحيد والإيمان بالله سبحانه، ولهذا نجد أهل العلم مجتمعين على عدّ الاستهزاء بالدين كفرًا مخرجا من الملّة، قال الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى: "صحّ بالنص أن كل من استهزأ بالله تعالى، أو بملَك من الملائكة، أو بنبي من الأنبياء عليهم السلام، أو بآية من القرآن، أو بفريضة من فرائض الدين، فهي كلها آيات الله تعالى، بعد بلوغ الحجة إليه، فهو كافر"[31]، وقال الإمام السعدي رحمه الله موضّحًا: "الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفرٌ يخرج عن الدين؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيمِ دينه ورسله، والاستهزاءُ بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة"[32]، وذهب الإمام النووي رحمه الله إلى أبعد من هذا، فزاد المسألة وضوحًا وبيانا؛ حيث قال: "ولو قال وهو يتعاطى قدح الخمر، أو يُقْدم على الزنا: بسم الله تعالى؛ استخفافًا بالله كَفَر"[33]، والأقوال في هذا المعنى كثيرة، فعُلم من هذا أنّ عدم تدرُّج الشريعة في تحريم الاستهزاء بالدين وأهله مردُّه إلى كونه ماسًّا بجناب الإيمان والتوحيد، خطرًا على سلامة المعتقد لدى المستهزئ وغيره، شأنه في ذلك شأن المخالفات الشركية التي لم تتدرّج الشريعة في تحريمها والنهي عنها، مع مراعاة ما بينها من التفاوت، ليُعلَم من هذه الخطّة المباركة الرشيدة خطورةُ التساهل مع المستهزئين المستهترين بمقدّسات الشريعة، وشعائر الدّين، وضرورة المسارعة في علاجهم، وتخليص الأمّة من شرورهم.

4. 3. 2.الأساس الثاني: الشدّة والصرامة في التعامل مع خطابات المستهزئين.

يعتبر هذا الأساس من أوسع الأسس، وأكثرها اشتمالا على أسس فرعية تندرج تحته، ولولا مخافة تشعيب هذا المطلب، وإرهاق القارئ الكريم بكثرة التفريع والتنويع لأمكن عدّ كل واحد من هذه الأسس الفرعية أساسا مستقلا بنفسه، مستحقًّا للبسط والتفصيل، ولكنّ طبيعة المقال، وارتباط هذه الأسس ببعضها، يسوّغ ضمّها، وسلكها ضمن عقد واحد، هو عنوان هذا الأساس القائم على فكرة الشدّة والصرامة في التعامل مع المستهزئين، وقد أحصيت من هذه الأسس ستةً أعرضها بإيجاز، مع ذكر ما يسمح به المقام من نماذج قرآنية عنها.

(أ)- أسلوب التهديد والوعيد:

يمكن القول إنّ ملاحظة هذا الأسلوب المطّرد في جميع مواضع ذكر الاستهزاء والمستهزئين في

القرآن الكريم كانت هي الباعث على كتابة هذا المقال؛ وذلك أنني استوقفني ذكر العذاب، وأحيانا بعض الألفاظ التي تسبح معه في فلك دلالي واحد، في كلّ سياقٍ يُذكر فيه استهزاء بدين الله تعالى أو أهله ودعاته، إمّا على جهة التهديد به، أو الإخبار بما حصل أو سيحصل منه للمستهزئين في الدنيا والآخرة، وقد جمعت الآيات المتعلقة بهذا الأسلوب، وبقيت أتأمّلها حتى أمكن لي أن أستخرج منها ستة أنواع متفرعة عنه، أعرضها مع ذكر أمثلة قرآنية عنها؛ مراعاة للإيجاز وضيق المقام:

النوع الأول: استعمال لفظ العذاب أو بعض مرادفاته في جميع سياقات ذكر المستهزئين.

ومن أمثلة هذا النوع قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: 41-42)، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الزمر: 55-56).

وقد يأتي لفظ العذاب موصوفا في بعض الآيات بأوصافٍ شديدة تزيد قوّة التهديد، وتبرز خطورة هذا الفعل الشنيع الذي أورد أصحابه المهالك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ (لقمان: 6)، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (التوبة: 79)، وقوله: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الجاثية: 9-10).

وممّا يؤكّد اطّراد أسلوب ذكر العذاب في كل سياقٍ ورد فيه خطابٌ للمستهزئين استعمالُ ألفاظٍ أخرى من بين ألفاظ حقله الدلالي؛ تقريرا لهذا المبدأ، وبيانًا لأهمية هذا العلاج النافع في محاربة وباء الاستهزاء بالمؤمنين، ومنع انتقال عدواه من أصحابه إلى من حولهم، ومن هذه الألفاظ: العقاب، النار، جهنم، السعير، الجحيم، الزجرة، الأخذ، البأس، الرجز، الإهلاك، وحاق بهم، الويل، الحشر على الوجوه، الإحضار حول جهنم جثيا، عدم إقامة وزن لهم يوم القيامة، الأغلال، ونحوها، غير أنّ الكثرة الظاهرة كانت للفظ العذاب؛ فقد ورد في هذه السياقات نحوًا من عشرين مرة.

النوع الثاني: التهديد المجمَل بالعذاب والإهلاكِ من غير تسمية ولا تعيين.

وفي هذا النوع يأتي الخطاب القرآني مهدّدا المستهزئين بأسلوب مبهم؛ مبالغةً في التخويف والإزعاج، حتى تذهب نفوسهم في تصوُّر هذا الوعيد كلّ مذهب، ومن أساليب هذا النوع قول الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ

﴿بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥﴾ (الأنعام: 5)، وقوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾ (السجدة: 30)، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾ (سبأ: 29-30)، وقوله: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢﴾ (الفرقان: 42)، ونظائر هذا كثير في القرآن الكريم.

النوع الثالث: إخبار المستهزئين بعاقبة مَن كان قبلهم السيئةِ بسبب استهزائهم وسخريتهم

من رحمة الله تعالى بهؤلاء المستهزئين، مع ما هم عليه من الكفر والعدوان، أن لم يكتف بتهديدهم بالعقاب، ووصفه لما سيلاقونه من صنوف العذاب يوم القيامة إن هم بقوا على غيّهم وطغيانهم؛ بل حكى لهم ما أصاب المستهزئين قبلهم من الأمم السابقة، وفي هذا منتهى الوعظ لهم، والشفقة عليهم، ومن أمثلة هذا الأسلوب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ (الأنعام: 10-11)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ (الرعد: 32)، وقوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ (الأنعام: 5-6).

النوع الرابع: التأكيد على تعذيب المستهزئين بمؤكّدات منها قسَم الله تعالى على ذلك.

في هذا النوع من أساليب تهديد المستهزئين ووعيدهم يستعمل ربّ العالمين جلّ جلاله مؤكّدات عديدة تجعل المرء عند تلاوتها يرتعد قلبه خوفًا، ويقشعرّ بدنه من شدّة إيقاع هذا النوع من الخطاب، وهول ما فيه من التهديد بالعقاب، والتأكيد على شدّ العذاب؛ كما في قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ٧٠﴾ (مريم: 66-70)، وقد ذهب جمعٌ من أهل التفسير إلى أنّ هذا السؤال الاستبعادي من هذا الإنسان خرج مخرج الاستهزاء والتهكّم، وهو الذي يتوافق مع سياق الآية، وتؤيّده آيات كثيرة أخرى ورد فيها سؤال بعض الكافرين عن البعث بأسلوب استهزائي تهكّمي.

النوع الخامس: ذِكر صورٍ مخيفة من عذاب المستهزئين يوم القيامة.

من المعلوم أنّ وصف تفاصيل العذاب عموما، سواء كان عذاب النّار، عياذا بالله تعالى، وهو أشدّ

العذاب وأعظمه، أم أيّ عذاب دنيوي آخر، من شأنه أن يضاعف ألم هذا العذاب، ويعجّل منه نصيبا لصاحبه؛ ولهذا كثر وصف النار في القرآن الكريم، وذِكر بعض ما فيها من صنوف العذاب التي أعدّها الله تعالى لأصحابها تخويفا لهم، وإقامة للحجّة عليهم، لئلا يكون لأحد منهم على الله حجّة يوم القيامة، وقد كان للمستهزئين من هذا الأسلوب نصيب وافر؛ نذكر منه قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الأنبياء: 38-41)، وقوله سبحانه: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ (الرعد: 5)، وقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ (الإسراء: 97-98).

النوع السادس: تبشير النبي ﷺ والمؤمنين بأنّ الله تعالى كافيهم شرّ المستهزئين.

في هذا النوع من أساليب تهديد المستهزئين يأتي الخطاب القرآني مهدّدا إيّاهم بطريق غير مباشر؛ بحيث يخاطب المولى تبارك وتعالى نبيّه ﷺ، ومِن ورائه أمّتَه أنّه يتكفّل لهم بإبطال مساعي من يستهزئ بهم، وكسْر شوكتهم، وجعل الدائرة تدور عليهم، وهذا التنويع في التهديد هو من أقوى أساليب تأكيد وقوع هذا الأمر، ومن أدلّته قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ (الحجر: 95)، وجميعُ ما في كتاب الله تعالى من نصوصٍ يخبر فيها سبحانه أنّه يدافع عن الذين آمنوا، وينصرهم على عدوّهم، كقوله جلّ وعلا: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (الحج: 38)، وقوله عزّ سلطانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: 47)، ونظائرهما.

ولا يزال التاريخ يسجّل قصصا عجيبة لأناس تجرّأوا على بعض شعائر الدين، أو رمز من رموزه، وتعرّضوا لها بالاستهزاء والسخرية؛ فكان عاقبتهم أن كسر الله ظهورهم، وقطع دابرهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

(ب)- أسلوب الإعراض والتجاهل

المتأمّل لجميع النصوص القرآنية التي ورد فيها ذكر خبر المستهزئين، أو نقل خطابهم، يجد أنّ الله

تعالى لم يشرّفهم في واحد منها بمخاطبته إيّاهم، أو الإجابة عن تساؤلاتهم ومهاتراتهم؛ بل حرمهم شرف الخطاب، واستعمل معهم أسلوب الغيبة تجاهلا لهم، وإعراضًا عنهم، وأكثر صيغ هذا الأسلوب استعمال أفعال القول بصيغة الغائب، وأشهرها: قال، وقالوا، ويقول، ويقولون، وفي مرّة: قولهم، واستعمال فعل: يستهزئون، وفعل اتخذوا، أو يتخذون وبعدهما فعل الهزء أو السخرية، كلّ ذلك بأسلوب الغائب، ولا خطاب فيها، ومن أمثلة ذلك:

قول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (البقرة: 212)

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (الأنعام: 5)

وقوله: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (يس: 30)

وقوله سبحانه: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ (الصافات: 12-20).

وقد تأمّلت جميع ما في كتاب الله تعالى من ذكر أخبار المستهزئين فألفيته على هذا النّحو؛ تجاهلٌ، وإعراض، واستعمال صيغة الغائب المُبعَد تحقيرا له، وعدم التفات إليه وإلى سخافاته، وهذا منهج ربّاني فريد يُحتذى؛ لأن المستهزئ ليس له رغبة في التعلّم والبحث عن الحقّ، وإنما هو العبث ومحاولة تثبيط المؤمنين، والتشويش عليهم، وشغلهم بما لا ينفعهم؛ فوجب تهميشهم، وتضييق نطاق التواصل معهم، لئلا يغترّوا بأنفسهم، أو يغترّ بهم بعض الجهلة مِن حولهم، لا كما هو الحال اليوم في كثير من بلاد المسلمين؛ حيث تتاح الفرص الثمينة، والمجالس الفسيحة، والفضاءات الواسعة، لبعض المفاليس الذين ليس لهم همٌّ ولا حرفة إلا الاستهزاء بالدين، وجعل أهله وشعائره أضحوكة للسفهاء أمثالهم، فتنطلي كثير من شبهاتهم على ضعَفة المسلمين، وتمرض بسماع كلامهم قلوبُهم، والله المستعان.

وليت الأمر وقف عند هذا الحدّ، لكان أهون؛ ولكنّ كثيرا من القائمين على القنوات الفضائية، والمواقع الإلكترونية، يتقصّدون بثّ كثير من البرامج المغرضة المتمحورة أساسا حول الاستهزاء بالدين وأهله في شهر رمضان المبارك، هذا الموسم العظيم الذي كان ينبغي أن تُصرف دقائقه وساعاته في تعظيم الربّ جلّ وعلا، والعكوف على ذكره ودعائه، لا في إضحاك البطالين، وتوريطهم بالمشاركة في الهزء بمقدّسات دينهم، والسخرية من صالحيهم وأتقيائهم، وإلى الله المشتكى.

(ح)- أسلوب التجريم والتوبيخ:

امتلأت الآيات المتضمّنة ذكر استهزاءات الكافرين بألفاظ التجريم والتقبيح والتوبيخ؛ بيانا لعظيم جرمهم، وهتكًا لأستارهم، وتهييجا للمؤمنين على التصدي لهم، وإنزالهم منازلهم التي تليق بهم، وأكثر ما

وُصف به المستهزئون في القرآن الكريم الكفر والإجرام، وهما وصفان دقيقان ومطابقان لهذه الفئة الباغية:

فاستهزاؤهم بالدين دليل على خلوّ قلوبهم من أدنى قدر من تعظيم الله تعالى، وإيمانٍ به وبرسوله ﷺ، وهذا الكفرُ.

وإدخالُهم الهمّ على قلوب المؤمنين، ومحاولة إضعاف عزائمهم، وزعزعة معنوياتهم إجرامٌ ما بعده إجرام.

ومن الشواهد على هذا الأسلوب قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ (الحجر: 12)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ (الرعد: 32)، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (النمل: 67-69)، وقوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (المطففين: 29-36).

وممّا يدلّ على هوان المستهزئين بالدين وأهله على الله جلّ وعلا أنّه يَقسم لهم من تقبيحهم، وتوبيخهم ما يخاطبهم به وهم في نار جهنّم كالحون، بعدما يسألونه أن يخرجهم منها، ويعيدهم إلى الدنيا فيحسنوا ويعملوا صالحا، فيقول عزّ من قائل: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ (المؤمنون: 108-111)، وعلى نفسها تجني براقش.

(د)- أسلوب نفي العذر بالجهل عنهم، ومعاملتهم معاملة العارف المتعمّد

كثيرا ما ينبري بعض الجهّال بشرع الله تعالى، وهدايات القرآن الكريم، للدفاع عن المستهزئين بالدين، المستهترين بأحكامه ومقدّساته، بدعاوى سخيفة، وحجج واهية، أشهرها مسألة العذر بالجهل، وهي مسألةٌ أدّى توظيفها في غير مواطنها إلى حصول فساد كبير في عقائد كثير من الناس، وفي حياتهم الأسرية والاجتماعية؛ فكلّ من يجني جناية، أو يرتكب جرمًا تجده يتسلّح بسلاح العذر بالجهل، بمن في ذلك من يستهزئ بشعائر الإسلام الظاهرة، ويتهكّم بأحكامه المعلومة من الدين بالضرورة، وهذه معضلة كبيرة، وخطر على الأمّة والدين عظيم.

فكيف يكون جاهلا من يتّخذ آيات الله تعالى، وشعائر دينه هزؤا ولعبا، ويَسخر من أولياء الله تعالى لا

لأشخاصهم وذواتهم، ولكن لما يظهر عليهم من مظاهر الديانة ومَلاحظ العبوديّة، مع أنّه يعيش بين أظهرهم، ويسمع من كلامهم، ويناله بلا شكّ من نصحهم وتذكيرهم؛ فبدَل أن يستجيب لهم، ويذعن للحقّ الذي معهم قام يسخر منهم، ويهزأ بهم؟! ولذلك فإنّ خطاب الله تعالى في القرآن الكريم المتعلق بأفعال هؤلاء المستهزئين جاء معاملاً لهم معاملة العارف المتعمّد، وأشهر آية في هذا الباب قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (التوبة: 64-66).

وممّا يمكن الاستدلال به في هذا السياق قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأحقاف: 26)؛ فأكثر المستهزئين بالدين جاحدون بحقائقه، مستكبرون عن اتّباعه، لسبب أو لآخر من بين أسباب ذكرنا أهمّها في بداية هذا المقال، والله الهادي.

(هـ)- أسلوب معاملتهم بالمثل وعدم الدعوة إلى العفو عنهم والصبر عليهم.

ما أكثر ما حثّ المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم على العفو، والصفح، والحلم، ورتّب على ذلك الأجر الكبير، والثواب العظيم، كما في قوله سبحانه: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (البقرة: 109)، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (المائدة: 13)، وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (النور: 22)، وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ (الشورى: 40)، غير أنّ هذه الآية الأخيرة التي قرن فيها ربّ العالمين جل جلاله بين العفو والمصلحة جعلت بعض أهل التفسير، وهو الإمام السعدي رحمه الله تعالى يقول: "شرط الله في العفو الإصلاح فيه؛ ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به"[34]، وهذا كلام في غاية الروعة، وأيّ مصلحة في العفو عمّن لا همّ له سوى تنقّص الشريعة، وتصيّد عيوب أصحابها؛ إزراءً بها، وحطًّا من مكانتهم؟ وفي مقدمة هؤلاء المستهزئون الساخرون، أيّ مصلحة في ذلك؟!

ولذلك فإنّ من يتتبّع آيات الحديث عن المستهزئين لا يجد فيها آية واحدة يندب الله تعالى فيها نبيّه ﷺ أو أمَّته من بعده إلى العفو عن المستهزئين، والصبر على أذاهم، بل نجدها تسير على نسَق واحد في هذا الشأن؛ هو تعنيفهم، وتهديدهم بالوعيد الشديد، وأحيانا نعتُهم بنعوتٍ تصف حالهم، وتحذّر الناس

منهم.

وممّا ينتظم في هذا العقد أيضا ما مرّ معنا بيانُه من مقابلة المولى تبارك وتعالى استهزاء المستهزئين باستهزائه سبحانه بهم، وسخريتهم بسخريته منهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ (البقرة: 14-15)، وقوله جلّ وعزّ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (التوبة: 79).

وليس هذا الأسلوب في التعامل مع المستهزئين خاصّا بالمولى جلّ وعلا؛ فقد عمل به بعض أنبياء الله تعالى، ومنهم نوح عليه السلام حيث أجاب قومه الذين كانوا يسخرون منه كلّما مروا عليه وهو يصنع الفلك بقوله: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (هود: 38)، وحتى يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكافرين نظير ضحكهم منهم، وتغامزون عليهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (المطففين: 29-36).

ولا ينبغي أن يُفهم من هذا الكلام أنّ الله تعالى أمر بمخاشنة المستهزئين مطلقًا، وعدم إعطائهم حقَّهم من الوعظ، والتذكير، والزجر، والتحذير، كلا وحاشا؛ وإنما المقصود أنّ الواجب في التعامل معهم وقت استهزائهم، واستخفافهم بالدين، أن تُستبعَد أساليب اللين، ويُكتفى بأساليب الشدّة والتقريع، وأن يُعاقَب من استحقّ العقوبة منهم، ولا يبقى الناصحون، أو البطالون المتفيهقون، يردّدون آيات العفو، والمغفرة، والرحمة، ونحو ذلك، ولمزيد تقرير هذا المنهج القرآني نمرّ إلى آخر نوع من أنواع هذا الأسلوب، وهو:

(و)- أسلوب عدم استعمال أسماء الله الحسنى المتضمنة معاني الرحمة والمغفرة والعفو.. في التعامل معهم.

كثيرا ما يختم المولى تبارك وتعالى آيات قرآنية ورد فيها خبر المذنبين المقصّرين بذكر بعض أسمائه الحسنى الدالة على مغفرته، ورحمته، وعفوه، وحلمه، وفي ذلك كما ذكر أهل التفسير دعوةٌ لهم إلى التوبة، ووعد لهم بالقبول والتوفيق، غير أننا لا نجد آية واحدة من الآيات المتضمنة ذكرا لجرائم المستهزئين القولية أو الفعلية ختَمها ربّ العالمين جلّ وعلا بذكر اسم من هذه الأسماء، بل خُتم أكثرها بذكر ما تعرّضوا له، أو سيتعرّضون له من العقاب الأليم، والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة، مع ذكر الحجج والبراهين على بطلان ما يعترضون به على أنبياء الله ورسلهم، على نبيّنا وعليهم أزكى الصلوات وأفضل التسليم، بأساليبَ شديدة الإيقاع، مليئة بعبارات التوبيخ والتجريم، ولأنّه قد مرّ معنا بيانٌ كاف لنماذج قرآنية

عن هذا النسق المطّرد في كتاب الله تعالى، ومراعاة للإيجاز، نكتفي بهذا القدر، ونمرّ إلى عرض الأساسين المتبقّيين من أسس المنهج القرآني في التعامل مع خطابات المستهزئين، مستمدّين من الله تعالى العون والتوفيق والسداد.

4. 3. 3. الأساس الثالث: التثبّت في معاملة المستهزئين وإنصافهم.

قبل عرض أهمّ معالم هذا الأساس، وبعض الأدلّة على كونه دعامةً أساسية من دعائم المنهج الذي نحن بسبيل عرضه وبيان تفاصيله، أودّ أن أشير إلى سبب اختيار هذا المحلّ له؛ أي بعد ما تقدّم عرضه من شدّة أساليب القرآن الكريم في التعامل مع المستهزئين، وما فيها من إغلاظ عليهم، وتهديد لهم بالعذاب العاجل والآجل، وخلوّ هذه الأساليب من مظاهر التلطّف مع هؤلاء المجرمين، وكذا اشتمالها على ترخيص للمؤمنين بأن يقابلوا سخريتهم بالسخرية، واستهزاءهم بالاستهزاء، فلعلّ ذلك أن يكون سببا لتهوّر بعض المتحمّسين، أو كثير ممّن لم يعقلوا عن الله تبارك وتعالى الحكم الجليلة التي شُرع هذا المنهج لتحقيقها، ومن أهمّها إصلاح هذه الفئة الباغية، والشدّ على أيديهم رحمة بهم، وصيانة المجتمع من شرورهم، ومنع انتشار الوباء الذي أصابهم فيمن حولهم؛ فكانت الحاجة إلى ضبط هذه العواطف، وتقييدها بقيود الشرع، ومن أهمّها تجنّبُ الظلم، وعدم إنكار المنكَر بمنكر مساوٍ له، أو أعظم منه.

وتجنّبا للتطويل أعرض مثالا قرآنيا أبيّن من خلاله كيف أنّ الله تعالى أنصف هؤلاء المستهزئين، مع علمه سبحانه بنواياهم، وما تنطوي عليه ضمائرهم، فكان لا يعاملهم معاملة المستهزئ في أيّ كلام يوجّهونه إلى نبيّه ﷺ؛ بل يعاملهم معاملة المجدّ المسترشد إن أظهروا من أنفسهم جِدًّا واسترشادًا، ومعاملة المستهزئ إذا شرعوا في استهزائهم وسخريتهم، وممّا يُستفاد من هذا الأسلوب أن لا يتعجّل المسلم اتّهام شخص من الأشخاص بأنّه مستهزئ، ويتعاملَ معه في ضوء المنهج القرآني المتبع في التعامل مع المستهزئين، ولو عُلم من حال هذا الشخص أنّه من أهل الاستهزاء بالدين، والسخرية من أهله، وليكن ديدنه في تعاملاته كلّها قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ (المائدة: 8).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾ (الإسراء: 49-52)، لنتأمل هذه الآيات:

إجابةُ المولى تبارك وتعالى عن سؤال المشركين: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾

جاءت مُشعرةً بأنّهم لم يكونوا مستهزئين، ولو ظاهرًا، استنادا على ما قرّرناه في هذا المقال من اطّراد اقتران الإجابة عن الأسئلة الاستهزائية بذكر العذاب، وغير ذلك مما تقدّم بيانه في هذا البحث، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾.

ثمّ نقل لنا ربّ العالمين أنّ هؤلاء المنكرين للبعث والنشور سيستمرّون سائلين: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾؟ وجوابَه تبارك وتعالى عن سؤالهم: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ، وهذا جواب كافٍ شاف، قاطعٌ لكلّ شكّ وريب، فهل اكتفوا به، واعترفوا بسلطانه على قلوبهم؟ لا، بل ظلوا مستمرّين في السؤال، وهذه المرّة لابد أن يكون مع سؤالهم تعنُّت وسفسطة، وتطلُّب ما لا حاجة إلى طلبه ومعرفته، وهو السؤال عن وقت البعث؛ إذ الأصل هو البحث عمّا هو أهمّ وأولى: ما هي عُدّة النجاة في هذا اليوم؟ فقالوا: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ وبحركة جسمية تحكي استهزاء وسخرية، وهي إنغاض الرأسِ الدالُّ التهكّم والاستهزاء[35]، فعندئذ ظهرت معالم المنهج القرآني الحكيم في التعامل مع خطاب المستهزئين، وتتمثل في مظهرين اثنين من المظاهر المتقدّم ذكرها:

الأوّل: التهديد المجمل بالعذاب، الذّاهبة معه نفوس المخاطَبين به كلّ مذهب: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والآخر ذكر العذاب بعد آياتٍ قلائلَ من هذا الأسلوب، حيث قال ربّ العالمين جلّ وعلا: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء: 58).

4. 3. 4. الأساس الرابع: تسلية المؤمنين، ورفع معنوياتهم بعد استهزاء الكافرين بدينهم والسخرية منهم.

يتحدّث كثير من علماء النفس، والأطباء النفسانيين عن آثار سلبية شديدة يحْدثها الساخرون بمن يسخرون منهم، بلغت ببعض من لا إيمان له ولا عناية بأحكام الشرع الحنيف إلى الانتحار بسبب الشعور بالنقص، والتأثّر باستخفاف الساخرين وتهكّماتهم القاسية، وعلى الرغم من أنّنا نرفض هذا السلوك المنحرف للتعامل مع الساخرين، وارتكاب هذه الجناية العظيمة في حقّ النفس المعصومة، إلا أنّ شهادة ربّ العالمين جل جلاله على نبيّه الكريم ﷺ وهو أكمل الخلق نفسًا، وأقواهم عزيمة، بأنّه كان يتأثّر باستهزاء المشركين؛ حيث خاطبه قائلا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر: 98)، كافيةٌ للتنبيه على ضرورة أن لا يَغفل المتعاملون مع المستهزئين عن هذا الأساس الهامّ من أسس منهج القرآن الكريم في التعامل معهم؛ وهو جَبر خواطر المستهزَأ بهم، ورفع معنوياتهم، دون إفراط ولا تفريط، وليكنْ نبراسهم في

ذلك الهدي القرآنيّ الكريم؛ القائم أساسًا على فكرة التذكير بثواب الله تعالى، وما أعدّه لأوليائه من رفعة الدرجات، وعلوّ المنازل يوم القيامة، وأنّ أساس التفاضل بين الناس هو تقوى الله عزّ وجل، إضافة إلى أمرٍ هامّ جدا سبق ذكره غير مرّة، وهو عدم منع المؤمنين من مقابلة سخرية الكافرين بسخرية منهم، على أن تكون في حدود المشروع، وفي ما يأتي شواهد قرآنية على هذا الأساس، نعرضها على القارئ الكريم، ونختم بها عرضنا هذا، سائلين المولى تبارك وتعالى أن يجنّبنا فيه الزلل، ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل، إنه سبحانه سميع قريب مجيب:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ (البقرة: 212).

وقال سبحانه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون: 106-111).

وقال عزّ من قائل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: 32).

وقال جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (المطففين: 29-36).

5. خاتمة :

نختم هذا البحث بعرض أهمّ ما وصل إليه من نتائج، وما يقدّمه من توصيات:

1. الاستهزاء بالدين، والسخرية من المؤمنين أسلوبٌ عدوانيّ، وحربٌ نفسية لم يزل أهل الباطل يشنّونها على المؤمنين، ويعتمدون عليها في إضعاف عزائمهم، وإثارة قلقهم، وإصابتهم بالإحباط، والهمّ، وزرع الشكوك بينهم.

2. في القرآن الكريم أدلّة على أنّه لم يسلم نبيٍ من أنبياء الله تعالى من استهزاء أعداء الدين، وسخريتهم.

3. بين الاستهزاء والسخرية علاقة العموم والخصوص المطلق؛ فكلّ سخرية استهزاء بلا عكس.

4. عُرّف الاستهزاء في هذا البحث بأنّه: "الاستخفاف والتحقير، بالتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه، فإن كان في مقابل عمل قام به المستهزأ فهو السخريةً؛ وكل سخرية استهزاء بلا عكس".

5. ورد في كتاب الله تعالى بيان أسباب الإصابة بآفة الاستهزاء، تمّ إحصاء أحد عشر منها في هذا البحث؛ هي: الاستكبار والعلو في الأرض، والإعراض والتكذيب، والاغترار بالعلوم الدنيوية، والاغترار بالمال واحتقار الفقراء، الاغترار بالملك والرئاسة، والترف والمبالغة في التنعم، والتقليد الأعمى والتعصب للمتبوعين، والتكذيب بالبعث، وحبّ الدنيا، وطول الأمل، والنفاق.

6. للاستهزاء بالدين عواقب وخيمة، أخطرها على الإطلاق: الغفلة عن ذكر الله تعالى، والتعرّض لعقابه العاجل والآجل.

7. اشتمل القرآن الكريم على بيان المنهج الرشيد للتعامل مع المستهزئين، المتضمّن أساليبَ متنوّعة، وطرائق عديدة، ترجع في مجموعها إلى أصول ثابتة، وأسس متينة، توصّل البحث إلى أنّها أربعة؛ هي:

- الفورية وعدم التأجيل والتدرّج.
- الشدّة والصرامة.
- التثبُّت في معاملة المستهزئين وإنصافهم.
- تسلية المؤمنين، ورفع معنوياتهم بعد استهزاء الكافرين بدينهم والسخرية منهم.

التوصيات والمقترحات:

يوصي الباحث بما يلي:

1. إثراء البرامج التعليمية بمزيد من الموادّ الإيمانية، وأسباب تعظيم الله تعالى، وشريعته الغرّاء في قلوب المسلمين.

2. ترسيخ معاني الأخوّة والاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع، وتجريم كلّ أشكال السخرية، والاستهزاء بالآخرين.

3. الاقتداء بهدي القرآن الكريم، وطريقته في التعامل مع المستهزئين.

4. مراقبة الإعلام بمختلف قنواته وأشكاله، ومنع كلّ البرامج التي تتضمّن استهزاء بالدين الإسلامي، أو سخرية من عباد الله الصالحين.

5. ضرورة شعور المرابطين على ثغور الأمّة الإسلامية، والقائمين على شؤونها، بخطورة الحرب النفسية التي يمارسها الأعداء ضدّها، وبخاصة حرب الاستهزاء والسخرية، والتعامل معهم بصرامة وحزم، صيانة لجناب الدين، وحفظا لجامعة الأمّة، وعزّتها، وتماسكها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

6. قائمة المصادر والمراجع:

1. إحياء علوم الدين: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، د.تا.
2. التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1984هـ.
3. تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، لبنان، ط1، 1419 هـ.
4. تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.
5. التوقيف على مهمات التعاريف: لمحمد بن تاج العارفين الحدادي ثم المناوي القاهري، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1410هـ-1990م.
6. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1، 1420هـ -2000م.
7. جامع البيان في تأويل القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ - 2000م.
8. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب، ط1، 1418هـ - 1997م.
9. روضة الطالبين وعمدة المفتين: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق- عمان، ط3، 1412هـ - 1991م.
10. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407 هـ - 1987م.
11. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ليحيى بن حمزة بن علي العلويّ، المكتبة العنصرية، بيروت، ط1، 1423 هـ.
12. الفتاوى الكبرى: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الدمشقي، دار الكتب العلمية، ط1، 1408هـ - 1987م.
13. الفروق اللغوية: لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم

والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د.ط، د.تا.

14. الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي القرطبي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، د.ط، د.تا.

15. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407 هـ.

16. لسان العرب: لأبي الفضل محمد بن مكرم المصري الإفريقي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ.

17. مجمل اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406 هـ - 1986م.

18. المحكم والمحيط الأعظم: لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421 هـ - 2000م.

19. مختار الصحاح: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، لبنان، ط5، 1420هـ - 1999م.

20. معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1399هـ - 1979م.

21. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط3، د.تا.

المواقع الإلكترونية:

22. مقابلة تلفزيونية على قناة الشارقة، الدكتور فاضل السامرائي، بتاريخ: 06 أكتوبر 2015، رابطها على يوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=g7d75SPIg98

7. الحواشي والإحالات:

---

(1) قال الله تعالى في ذكر بعض أوصاف المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ (البقرة: 14-15).

(2) البقرة، والنساء، والتوبة، ومحمد ﷺ، والحجرات.

(3) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407 هـ - 1987م، ج1، ص83.

(4) معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1399هـ - 1979م، ج6، ص52.

(5) لسان العرب: لأبي الفضل محمد بن مكرم المصري الإفريقي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ، ج1، ص183.

(6) مختار الصحاح: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار

النموذجية، بيروت – صيدا، لبنان، ط5، 1420هـ - 1999م، ص326.

[7] المحكم والمحيط الأعظم: لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421 هـ - 2000م، ج4، ص350.

[8] تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ج7، ص77.

[9] مجمل اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406 هـ - 1986م، ج1، ص490.

[10] المحكم: ابن سيده، ج5، ص74.

[11] لسان العرب، ج4، ص352.

[12] أكثر من وجدتُه من الباحثين يذكر هذا الفرق استعملوا عبارة: الجارّ الذي يأتي بعدها، وهذه عبارة غير دقيقة؛ فكثيرا ما يرد في القرآن الكريم وغيره ذكرُ الجارّ المتعلق بلفظ الاستهزاء أو السخرية قبلهما؛ ولهذا فضّلت استعمال مصطلح يتعلّق بهما تفاديا لهذا الخلل، ولأنّه أيضا المصطلح المتعارف عليه بين أهل العربية.

[13] تهذيب اللغة: الأزهري، ج6، ص196.

[14] مختار الصحاح: للجوهري، ج2، ص697، ولسان العرب: ج4، ص353.

[15] تهذيب اللغة: للأزهري، ج7، ص78، ويُنقل هذا القول عن الفراء والزبيدي أيضا.

[16] لسان العرب: ج4، ص353.

[17] الفروق اللغوية: لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د.ط، د.تا، بتصرف يسير في العبارة، ص254.

[18] هو الدكتور فاضل السامرائي، في مقابلة تلفزيونية على قناة الشارقة، بتاريخ: 06 أكتوبر 2015، رابطها على يوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=g7d75SPIg98

[19] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407 هـ، ج1، ص66.

[20] الفتاوى الكبرى: لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الدمشقي، دار الكتب العلمية، ط1، 1408هـ - 1987م، ج6، ص22.

[21] الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ليحيى بن حمزة بن علي العلويّ، المكتبة العنصرية، بيروت، ط1، 1423 هـ، ج3، ص91.

ونقل الأزهري عن ابن الأعرابي وابن زيد القول بأنّ التهكّم هو الاستهزاء، انظر: تهذيب اللغة: للأزهري، ج6، ص22.

[22] التوقيف على مهمات التعاريف: لمحمد بن تاج العارفين الحدادي ثم المناوي القاهري، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1410هـ-1990م، ص50.

[23] إحياء علوم الدين: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، د.تا، ج3، ص131.

[24] سبقت الإشارة إلى أن مجموع ما ورد في كتاب الله تعالى من ذكر آفة الاستهزاء هو ما يقارب ستين موضعا، وأمّا ما

أذكره هنا فمجموع الآيات الواردة في تلك المواضع؛ أي مع سياقاتها التي لا يمكن تصوّر ما اشتملت عليه من المعاني والدلالات إلا بضمّ بعضها إلى بعض.

[25] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب، ط1، 1418هـ - 1997م، ص42.

[26] تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، لبنان، ط1، 1419 هـ، ج7، ص99.

[27] التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1984هـ، ج24، ص46.

[28] إطلاق وصف المستهزئ في مثل هذه السياقات، وبخاصة المشتملة على أحكام التكفير، والتوعّد بعذاب الدنيا والآخرة، وهو إطلاق القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (الحجر: 95) يُفيد أنّ المقصود بهذه الأحكام الذي كان الاستهزاء بالدين ديدنا له، وأمّا من حصل منه الاستهزاء مرّة ومرتين من المسلمين فهذا له شأن آخر؛ فلابد من إقامة الحجة عليه، باجتماع الشروط فيه، وانتفاء الموانع عنه، فكثيرا ما يكون جاهلا فيُعلَّم.

وينبغي التنبيه في هذا الخصوص أيضا على مسألة أخرى لا تقلّ أهمية عن سابقتها؛ وهي مسألة الاستهزاء بالمؤمنين، فهي وإن كانت معصية لله عز وجل، وسلوكا مذموما شرعا وعقلا، فإنّه ينبغي التفريق بين ما إذا كان الاستهزاء بهم لسبب يتعلق بدينهم، وما إذا كان يتعلق بشيء آخر غير دينهم؛ مع التنبيه على أنّه في الغالب لا يُستهزأ بالمؤمن إلا لشيء له علاقة بدينه والتزامه شرعَ ربّه جلّ وعزّ، والله المستعان.

[29] لطفا، انظر: ص17 من هذا البحث.

[30] مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط3، د.تا، ج2، ص224.

[31] الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي القرطبي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، د.ط، د.تا، ج3، ص142.

[32] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1، 1420هـ -2000م، ص342.

[33] روضة الطالبين وعمدة المفتين: لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق- عمان، ط3، 1412هـ- 1991م، ج10، ص67.

[34] تفسير السعدي، ص760.

[35] كذا قال أهل التفسير، وعزاه الإمام الطبري إلى ابن عباس رضي الله عنهما، انظر: جامع البيان في تأويل القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ - 2000 م، ج17، ص467.

